تعريف الخطابة، وتاريخها، وأهميتها

أصول الدعوة

إعداد أ/ محمد الجوهري

قسم الدعوة وأصول الدين

كلية العلوم الإسلامية – جامعة المدينة العالمية

شاه علم - ماليزيا

waleed.eltantawy@mediu.edu.my

خلاصة—هذا البحث يبحث في تعريف الخطابة، وتاريخها، وأهميتها.

الكلمات الافتتاحية: التاريخ، الخطابة، الأهمية.

I. *المقدمة*

الحمد لله والصّلاة والسّلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، أمّا بعد أخي الطَّالب، سلامٌ من الله عليكَ ورحمةٌ منه وبركات، ومرحباً بك في سلسلة الدُّروس المقرَّرة عليك في إطار مادَّة أصول الدعوة ، لهذا الفصل الدِّراسيّ، آملينَ أن تجدَ فيها كلّ المُتعة والفائدة، وفي هذا الدرس نتعرف على تعريف الخطابة، وتاريخها، وأهميتها.

II. موضوع المقالة

١- تعريف الخطابة لغةً واصطلاحًا:

الخطابة كما يعتقد الأقدمون علم له أصوله وقوانينه، من استطاع الأخذ بها والسير في طريقها عد خطيبًا، إذ لا يعد القول خطابة إلا إذا أحاطته مجموعة من الخصائص تجعله متميزًا عن غيره من فنون القول الأخرى.

والخطبة في اللغة: مصدر خطب، يخطب خطبة، وخطابة.

ولو نظرنا إلى كلمة خَطَبَ نجد أن معناها يدور حول أمرين:

الأول: الرغبة في الزواج.

والثاني: ملكة البيان وفصاحة اللسان.

والذي يهمنا في هذا المقام من المعنيين السابقين هو المعنى الثاني؛ حيث إنه موضوع حديثنا، وقد عبر عنه الشيخ علي محفوظ بعبارة قوية موجزة، حيث قال : الخطابة في اللغة توجيه الكلام نحو الغير للإفهام، هذا عن الخُطْبَة في اللغة.

أما في الاصط لاح فيعرفها الشيخ علي محفوظ بقوله : إنها ملكة الاقتدار على الإقناع، واستمالة القلوب، وحمل الغير على ما يراد منه.

ويعرفها الشيخ محمد أبو زهرة بقوله : إن الخطابة صفة راسخة في نفس المتكلم، يقتدر بها على التصرف في فنون القول؛ لمحاولة التأثير في نفوس المستمعين، و حملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم.

وقد عرفها الدكتور الحوفي بقوله : هي فن مشافهة الجمهور، وإقناعه واستمالته فلا بد من مشافهة، وإلا كانت كتابة أو شعرًا مدونًا، ولا بد من جمهور يستمع وإلا كان الكلام حديثًا أو وصية، ولا بد من الإقناع، وذلك بأن يوضح الخط يب رأيه للسامعين، ويؤيده بالبراهين ليعتقدوه كما اعتقده.

والمقصود بالإقناع ذلك النوع الخطابي الذي سيأتي الحديث عنه -إن شاء الله تعالى- ثم لا بد من الاستمالة، والمراد بها أن يهيج الخطيب نفوس سامعيه، أو يهدئها ويقبض على زمام عواطفهم يتصرف بها كيف شاء سارا أو محزنا، مضحكًا أو مبكيًا، داعيًا إلى الثورة، أو إلى السكينة، وإذًا فأسس الخطابة مشافهة، وجمهورٌ وإقناعٌ واستمالةٌ، ومن السهل بعد ذلك أن يتبين قصور تعريف الخطابة بأنها فن الكلام الجيد؛ لأن الكلام الجيد ينتظم الخطابة والكتابة والشعر.

ومن السهل أيضًا أن نرى نقصًا في تعريفها، بأنها القدرة على النظر في كل ما يوصل إلى الإقناع في أي مسألة من المسائل؛ لأن كثيرًا من الكتب مقنع، وكثيرًا من الكتاب مقنعون؛ ولأن الأساتذة في شرحهم ومحاضراتهم مقنعون، وليس واحد من هؤلاء خطيبًا؛ لأنهم يتجهون إلى العقل لا إلى العاطفة؛ فهم يقن عون، ولكنهم لا يستميلون، ثم من السهل أن نجد نقصًا في تعريف الخطابة بأنها فن الاستمالة؛ لأن المنظر الطبيعي الراقي يستميل الذواقين للجمال، وليس خطبة؛ ولأن الممثل البارع يستميل النظارة بإشاراته أو حركته أو زيه، أو وقفته دون أن ينطق، فليس بخطيب؛ ولأن البائس ال عاري الجسد، المهلهل الثوب، المعروق الجسد قد يستميل المحسن بمنظره هذا، وما هو بخطيب.

على أن هناك تعريفات أخرى للخطابة منها:

أنها علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول المختلفة؛ لمحاولة التأثير في نفوسهم، وحملهم على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم.

ومنهم من عرفها بقوله: إنها خطاب يلقى من فرد على جماعة، بقصد التأثير في نفوسهم واستمالتهم، وعن هذه التعريفات المتعددة للخطابة يقول الدكتور عبد الجليل شلبي :

عرفت الخطابة بتعاريف كثيرة لا يتباعد بعضها عن بعض كثيرًا، ولكن منها ما ليس جامعًا لكل أنواع الخطابة وجزئياتها، ومنها ما ليس مانعًا من دخول أشياء أخرى معها، مثل الوصايا والدروس والإعلانات وهكذا، وأوضح وأدق ما عرفت به الخطابة أنها فن مخاطبة الجماهير بطريقة إلقائية، تشتمل على الإقناع والاستمالة، هذا التعريف كما نرى يقوم على عناصر معينة:

أولًا: أن يكون الحديث مخاطبة لجمهور من الناس، فإذا كان الشخص يتحدث إلى فرد أو اثنين؛ فإنه عادة لا يحتاج إلى لهجة خطابية، ويكفيه أن يشرح المعنى أو الفكرة التي يريدها في صوت هادئ، وطريقة مألوفة في كل الأحاديث، فهذا ليس خطبة.

ثانيًا: أن يكون بطريقة إلقائية، وهذا يعني جها رة الصوت، وتكييفه باختلاف نبراته، وتجسيم المعاني التي تتضمنها الخطبة، وإبداء التأثير بها، ومن مكملات هذه الطريقة أن تصحبها إشارات باليد، أو بغير اليد، كما يبدي الخطيب انفعالاته بما يقول، فكل ذلك يثير السامعين، ويوجه عواطفهم نحوه، ويجعلهم أكثر استجابة لرأيه.

ثالثًا: أن يكون الحديث مقنعًا، بحيث يشتمل على أدلة وبراهين تثبت صحة الفكرة التي يدعو إليها الحديث، فإذا خلت الخطبة من هذه الأدلة؛ فإنها لا تزيد على أن تكون إبداء رأي، وهي تكون فاشلةً؛ لأنها لا تؤدي إلى الغرض الذي قيلت من أجله . والخطيب الناجح يشرح الأدلة التي يسوقها شرحًا وافيًا يكثر فيه المترادفات، ويعيد بعض الجمل ويلح على تركيز معانٍ خاصة وجزئيات معينة وأمثلة توضح الفكرة، وتثبّتُها في أذهان سامعيه.

رابعًا: أن يتوافر في الخطبةً عنصر الاستمالة، وهذا يعني توجيه عواطف السامعين، واستجابتهم للرأي الذي تدعو إليه الخطبة؛ لأن السامع قد يقتنع بفكرة ما، ولكن لا يعنيه أن ينفذها، أو أن تتحقق من غيره فلا يسعى لتحقيقها هذا العنصر من أهم عناصر الخطبة؛ لأنه هو الذي يحقق الغرض المطلوب منها؛ فاللصوص والوشاة والنمامون وفاقدو الأمانة في أعمالهم، وغيرهم من منحرفي السلوك يد ركون فساد أعمالهم، وسوءها ولكنهم مع ذلك يمارسونها، بل أكثر من ذلك؛ وهذا يرجع لأسباب نفسية أن الشخص الكذاب قد يشرح أضرار الكذب، وسوء نتيجته بأكثر مما يتحدث الواعظ والمربي، وكذلك يتحدث اللصوص عن أضرار السرقات، والمهملون عن أضرار الإهمال وهكذا، وكل ذلك يوضح أ ن الإقناع وحده لا يكفي لنجاح الخطبة . بل لا بد من جذب السامعين؛ لإشباع الفكرة واستمالة عواطفهم نحوها حتى يتبع إقناعهم عمل بما اقتنعوا به.

والإلقاء ذو أثر كبير في استمالة السامعين، فمن الخطباء من يكون فاترَ الإلقاءِ، ضعيفَ التأثير فتضيع أدلته الكثيرة المقنعة هباءً، ومنهم من يأتي بأدلة أقل أو أضعف، ولكنه يثير عواطف السامعين، ويلهب مشاعرهم فيتحمسون لتنفيذ فكرتهم، ويحاول كل واحد منهم أن يعمل على تحقيق شيء منها بقدر طاقته، وقد يدعو خطيبٌ ما أبناءَ قريته إلى إنشاء مدرسة لتعليم ناشئيهم؛ فيبين لهم مزايا هذه المدرسة، فيسمعونه ويشكرونه، ثم لا يعملون أي شيء لإنشائها،وربما تحدث آخر في الموضوع نفسه فإذا الناس مندفعون لتحقيق دعوته.

وإذًا فقد نجحت الخطبة وآتت ثمرتها، ولا يرجع نجاحها إلى الإقناع، بل إلى الاستمالة.

قد يكون هناك موضوع لا يدخله عنصر الاستمالة أصلًا؛ فإذا وقف مت حدث في جمهور يشرح نظرية علمية مثل تكوين الطيف من ألوان سبعة، أو كيفية حدوث التمثيل الكلوروفيلي في النبات، أو كيف يصرع التيار الكهربي أو ما أشبه ذلك من النظريات؛ فليس في حديثه ما يحتاج إلى استمالة وإن كان مشتملًا على إقناع واضح، وحسن استدلال، فهذا غير داخل في تعريف الخطبة.

وعمل المدرسين من هذا النوع يأتون بحقائق مجهولة لتلاميذهم؛ فيلفتون أذهانهم نحوها، ويقيمون الأدلة على صحتها، ولكن عملهم ليس داخلًا في إطار الخطابة، ولا يشمله تعريفها، ومن ذلك أيضًا : أعمال القُصَّاص يروي الواحد منهم أحاديث نادرة لأشخاص حقيقيين، أو وهميين فيصور بها حسن العاقبة لأعمال الخير، وسوء المصير لأعمال الشر، وينفعل السامعون بهذا النوع من الوعظ ويتأثر به سلوكهم، ولكن هذا

العمل لا يسمى خطبة أيضًا؛ من ناحية لأنه ينقصه عامل الإقناع الكلامي، وإن كان مقنعًا بما فيه من أحداث، ومن ناحية أخرى أنه ليس إلقاء خطابيًّا، بل هو حديث وعظات.
ومن ذلك أيضًا الوصايا الطويلة والحكم القصيرة، التي يقدمها الحكماء والمجربون لأبنائهم وأصحابهم، وكتب الأدب العربي تحفل بهذا النوع من الكلام، هذه لا تسمى خطبة؛ لأنها تفقد كل أو معظم أركان الخطبة، ولكن دارسي الخطابة يذكرون الوصايا والمحاورات والأجوبة تبعًا للخطابة، لأنها شيء مكمل لها، وإن لم تستوفِ أركان الخطبة، ولا ينطبق عليها تعريفها، وعلى ذلك فإن الخطيب يستهدف من خلال خطبته إلى أمور أساسية:
الأمر الأول: نقل أفكاره إلى الآخرين.
والأمر الثاني: إقناعهم منطقيًّا بهذه الأفكار.
والأمر الثالث: جذب قلوبهم إليها؛ ليعملوا بمقتضاها.
٢- الفرق بين الإقناع والاستمالة:
قد تقنع الشباب بمضار التدخين مثلًا فتنجح في مهمتك، بل إنك تحاول مع البعض، فإذا هو أشد اقتناعًا منك بضرره البالغ على الصحة، والوضع الاقتصادي، ومع ذلك فهم يمارسون التدخين بشراهة وتحدٍّ، إلى هنا فلم يكف الإقناع، ولابد من الاستمالة جذبًا لهم، وكسبًا لإذعانهم بإقلاعهم عن عادة مهد العقل والقلب معًا؛ للتخلص منها، ولو أنك وضعت السُّراقَ والقتلة والزناة في قفص الاتهام وحاكمتهم جميعا على ما كسبت أيديهم لما كان جوابهم: إلا أننا نعرف مدى الضرر، وعمق الإجرام، لكن الشيطان هو الذي دفع بنا إلى ذلك، إذًا فالإقناع ممكن، والسبيل ممهد إليه.
أما الاستمالة المتوجة بالاستجابة : فهي بُعْدٌ آخر على الطريق تتم به وظيفة الخطيب، بالترغيب تارةً والترهيب تارة أخرى، وبهما معًا أحيانًا ونتناول مثلًا تط بيقيًّا على ذلك من السنة المطهرة، أول خطبة خطبها رسول الله - صلى الله عليه وسلم- : «صعد النبي - صلى الله عليه وسلم- المنبر، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: يا أيها الناس، إن الله قد اختار لكم الإسلام دينًا؛ فأحسنوا صحبة الإسلام بالسخاء، وحسن الخلق، ألا إن السخاء شجرة من الجنة، وأغصانها في الدنيا، فمن كان منكم سخيًّا لا يزال متعلقًا بغصن منها حتى يورده الجنة، ألا إن اللؤم شجرة في النار، وأغصانها في الدنيا فمن كان منكم لئيمًا لا يزال متعلقًا بغصن منها حتى يورده في النار، ثم قال مرتين : السخاءَ في الله، السخاء في الله» كيف بلغ الرسول -صلى الله عليه وسلم- بقوله: مكان الإقناع؟
أولًا: بمخاطبة العقل القاضي بأن الله تعالى إذا كان قد أكرمنا بهذا الدين الذي هو أجل النعم؛ فلا بد أن يجيء الشكر جزاء لهذه النعمة، على أن يأخذ الشكر طابعه العملي على طريقين:
أولًا: طريق البذل بالمال؛ إعانة للمحتاج وصيانة لمرافق المجتمع.
ثانيًا: طريق الود الجامع للقلوب، وذلك بحسن الخلق، وحيث يبدو التكليف هنا صعبًا، فإن العقل لا ينهض به وحده؛ ولذا يتجه - صلى الله عليه وسلم- إلى الترغيب والترهيب؛ ليتحرك المخاطب، ويأخذ خطوة عملية إلى شكر هذه النعمة، وظهر ذلك في استخدامه - صلى الله عليه وسلم- لنسق الترغيب هنا وما تلاه من الترهيب، والذي ينسجم مع طبيعة الإنسان التي لا تستجيب إلا للرفق والتدرج.
وها هو ذا - صلى الله عليه وسلم- يثير فيها الشوق إلى السخاء على سنة التدرج؛ استنفارًا للقوى الكامنة، فالسخاء شجرة، ثم ه و شجرة في الجنة، وليست من أشجار الدنيا، فإذا تفتحت النفس وأصغت الأذن جاء الأمل في الوصول، ومع أن الشجرة في الجنة فأغصانها مُدَلَّاةٌ في الدنيا ثم هي في يدك ما دمت سخيًّا، وبالمحتاجين حفيًّا، ومع ذلك كله فهي واصلة بك حتمًا إلى ما تشتهي -إلى الجنة.
وبهذا الأسلوب الفريد يمكن للمتكلم أن يحرك العقل، وأن يحرك المشاعر جميعًا؛ لينهض المستمع إلى التطبيق بكيانه كله، وقل مثل ذلك في كل ما يتناوله الخطيب من قضايا ، إن محبة الله تعالى لا تأتي من مجرد الإيمان العقلي به، فالأمور العقلانية وحدها ما كانت يومًا لتؤثر في العواطف والقلوب؛ ولو كان كذلك لكان المستشرقون في مقدمة المؤمنين ورسوله، ولكانت أفئدتهم من أشد الأفئدة حبًّا لله ولرسوله، أو سمعت بأحدٍ من العلماء ضحى بروحه إيمانًا منه بقاعدة رياضية، أو مسألة من مسائل الجبر مثلًا؟ لا؛ ذلك لأن الدوافع الوجدانية في القلب من خوفٍ و محبةٍ ورجاءٍ تفعل ما لا يفعله الفهمُ العقلانيُّ المجردُ.
ولقد أجاد الشاطبي - رحمه الله- حينما فرق في باب الدوافع بين عامة المسلمين، الذين دخلوا في ربقة التكاليف، بدافع من عموم إسلامهم وخواصهم الذين دخلوا في ربقة هذه التكاليف، يسوقهم ما هو أشد من مجرد التعقل والفهم وهو الحب والرجاء.
يقول: فالضرب الأول حاله حال من يعمل بحكم عهد الإسلام، وعقد الإيمان من غير زائد.
والثاني: حاله حال من يعمل بحكم غلبة الخوف والرجاء، أو المحبة فالخوف سوطٌ سائقٌ، والرجاء حادٍ قائدٌ، والمحبة تيارُ حامٍ.
فالخائف يعمل مع وجود المشقة، غير أن الخوف مما هو أشق يحمل على الصبر على ما هو أهون، وإن كان شاقًّا، والراجي يعمل مع وجود المشقة أيضًا، والمحب يعمل ببذل المجهود شوقًا إلى المحبوب؛ فيسهل عليه الصعب، ويقرب عليه البعيد.
ولا يرى أنه أوفى بعهد المحبة، ولا قام بشكر النعمة، وهكذا تبدو مسئولية الخطيب في إثارة القوى الكامنة في داخل الإنسان؛ لتنطلق من عقالها إلى جانب العقل الواعي، وصولًا إلى ما يرجوه من تأثير، وإذا كان المحاضر يستخدم البرهان؛ بيانًا للأرقام والأحجام، فإن هذا البرهان لا يحمل على اتخاذ الطاعة سبيلًا، ويتكفل بذلك إثارة الوجدان، وتلك وظيفة الخطيب هذا عن تعريف الخطابة في اللغة وفي الاصطلاح، وعن بيان الفرق بين الإقناع والاستمالة.

٣- تاريخ ظهور الخطابة:
الخطابة مخلوقة مع الإنسان، وكان البحث عنها قبل الجاهلية والإسلام خاصة، وأن تأثير البلاغة في النفوس لا يخص أمة بعينها، ولا جيلًا بعينه.
وقد قال ابن سيناء : إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جدًّا؛ لأن الأحكام الصادقة فيما هو عَدْلٌ وحسن، أفضل نفعًا وأعظم من أضدادها فائدة والإنسان لا يعيش وحده؛ فكان لا محالة محتاجًا إلى التعامل، والتجاور وهما محتاجان إلى أحكام صادقة، وهذه الأحكام تحتاج إلى أن تكون مقررة في النفوس، ممكنة في القلوب، والبرهان قليل الجدوى في حمل الجمهور على الحق.
فالخطابة: هي المعنية بذلك، ولمَّا كان الله تعالى قد فطر الناس على قوة البيان، وملكة التأثير؛ فاستطاعوا بها حمل غيرهم على ما أرادوا منهم ورأى غيرهم ما ناله هؤلاء بسبب هذه الملكة، وأنهم لم ينالوا ما ناله أصحابها؛ حاولوا أن يبحثوا في الأسباب؛ فنظروا واختاروا، ودققوا النظر والا ختيار، ودونوا نتيجة أبحاثهم، ووسعوها حتى جاء أرسطو في القرن الرابع قبل الميلاد، فجمع ما عرفه من شتات هذا الفن في كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة سماه (الخطابة).
وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية بشر بن متى، ولخصه ابن رشد، وأخذ عنه فلاسفة العرب كابن سينا والفاراب ي؛ ولذلك عده كثير من هؤلاء الفلاسفة جزءًا مكملًا لعلم المنطق، وجعل ابن سينا الخطابة قسمًا منه والسبب أنهم رأوا أن أرسطو في كتاب (الخطابة) تكلم عن الحدِّ والرسم والدليل، وكيف يتألف القياس الخطابي، كما تكلم على التصديق الذي يكفي في الخطابة، وقد استمر أمر الف لاسفة على هذا الحال إلى أن قصر المتأخرون منهم النظر في المنطق على القياس والأشكال.
وقد عرف أن أول من دون قواعد هذا العلم ثلاثة من فلاسفة اليونان، في أواخر القرن الخامس وأوائل القرن الرابع قبل الميلاد، وقد ظهر أرسطو زعيم فلاسفة اليونان، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول هذا الفن إلا دونه ونشره في كتابه (الخطابة) الذي أشرنا إليه.
٤- الخطابة بين فنون الأدب:
نأتي الآن إلى الحديث عن الخطابة بين فنون الأدب فنقول:
الخطابة نوع من النثر، وبهذا التعريف الذي سبق تختلف عن الكتابة، وعن النثر الفني؛ إذ لا شرط هناك لوجود الإقناع أو الاستمالة، وقد تكون الكتابة وصفًا لمنظر ما، أو صفة لحالة نفسية للكاتب أو حديثًا عن شيء رآه فلا يشملها تعريف الخطبة، ولكن الخطابة قد تحتوي عبارات كثيرة من النثر الفني، فيها جمال التركيب، وحسن الحلية اللفظية كالسجع والطباق، وقد يرفع هذا قيمة الخطبة، ويجعلها أشدَّ تأثيرًا، لكن الخطبة في جملتها ليست نثرًا فنيًّا، يقوم على تجويد العبارات، والتأنق في الأساليب، وغالبًا لا يتفق هذا مع الإقناع والاستمالة.
والخطبة تختلف عن الشعر، لا يرجع هذا الاختلاف إلى أن الشعر موزون مقفىً، والخطبة ليست كذلك فقط، بل يرجع فوق هذا، وأهم منها إلى أن الخطبة تتناول المسائل الجادة الواقعية، وتقوم على الحقائق الملموسة بينما يقوم الشعر أساسًا على الخيال والعاطفة، فإذا تناول أمرًا واقعيًّا تناوله من جانب العاطفة أيضًا؛ ولهذا قد يُحَلِّي الخطيب خطبته بشيء من الشعر؛ لإثارة سامعيه وإ يقاظ عواطفهم، كما قد يستعمل أسلوبًا شعريًّا يقوم أيضًا على الخيال والعاطفة، ولكن قوام الخطبة وكيانها يقوم على الإقناع والاستمالة.
هب أن خطيبًا وشاعرًا قام يرثيان عظيمًا من الناس، فماذا يقول كل منهما؟ أما الشاعر : فإنه يعمد إلى استجاشة عواطف الناس بأسلوب تشي ع فيه الرقة الموسيقية، ويعرض صورًا من حياته ومواقفه المشرفة، وما له من ميزات وفضائل، ولكن كلامه في هذا أدنى إلى الإشارة والتلميح، كأنه مجرد تذكرة للناس، وربما انتقده في رأي، أو أبدى معارضته فيه، وذلك أيضًا يكون على سبيل العرض السريع الموجز، ولابد في كل ذلك من الجوانب الخيالية التي تثير عاطفة السامعين، وتشعرهم بقدر الميت، ومكانته على الرغم مما يذكر من نقده ومخالفته في بعض الآراء، والمواقف هذا عن الشاعر.
وأما الخطيب : فهو بين حالتين قد يذكر شيئًا من تاريخ الفقيد، وتكوينه العلمي، أو السياسي وميوله وطباعه، ثم ين تهي إلى آثاره ومزاياه، وما خسر الناس بموته من انقطاع أعماله وآثارهن وفي هذه الحالة يسمى كلامه تأبينًا وليس خُطْبَةً؛ لأنه مجرد سرد أخبار وتاريخ، وليس ثمة إقناع ولا استمالة لمبدأ ما؛ فهو خارج عن نطاق الخطابة، وتسميته خطبة عمل مجازي.
وقد يضيف إلى ما سبق أن ا لمبادئ التي كان يعمل لها ذات أهمية في حياة قومه، وأنهم لابد أن يتابعوها ويعملوا على بقائها؛ فيكون حديثه خطبة؛ لأنها حينئذٍ اشتملت على الإقناع بإحياءِ مبادئِه، والاستمالة لمتابعتها.
٥- أهمية الخطابة:
نأتي الآن إلى الحديث عن أهمية الخطابة:
فللخطابة أهمية كبيرة، وتنبثق أهمية الخطابة من أمور:
أولًا: أنها حاجة نفسية.
ثانيًا: أنها ظاهرة من ظواهر المجتمع البشري.
ثالثًا: وحدتها الكلمة بسحرها وفاعليتها.
رابعًا: أنها سلاح من أسلحة الدعوة إلى الله -عز وجل- ونتناول كل نقطة من هذه النقاط:
أولًا: كونها حاجة نفسية نقول : يولد الإنسان فيستقبل الحياة بما فيها ومن فيها، وميلاد الإنسان بداية لمرحلة من مراحل الصراع مع نفسه، ثم مع بيئته في محاولة إثبات ذاته، وفي دوامة هذه المعاناة يحاول التعبير عن دوافعه وآلامه وآماله، بمختلف الصور

بالفلسفة أو الشعر، بالصورة أو بالحركة، وبالخطابة التي هي أبرز أدوات التعبير جميعًا، وإذا احتاج الإنسان إلى الطعام فإنه أيضًا في حاجة إلى الكلام؛ لينشئ عن طريق التعبير علاقات اجتماعية مع الآخرين تستمر بها الحياة.

إن الخطابة تهدف أبدًا إلى التأثير والإقناع، معبرة عن عقيدة الخطيب ورأيه في مشكلات الحياة، تشتد باشتداد الأزمات التي ترتبط ارتباطًا جذريًا بمصير الجماعة، وتقرير مستقبلها فهي ربيبة السلاح تواكبه، وتعوض عنه وأحيانًا كثيرة تشحذه وتحفزه، وتقتحم ملاحم الدمار، وإذ يسرد المؤرخ مثلًا حقائق التاريخ بهدوء، وصوت خفيض بعيدًا عن الانفعال، فإن وطأة الإحساس بالانحراف في ميزان الخطيب تفجر الانفعال، الذي يجعل من التعبير عنه أمرًا ملحًا لا يحتمل السكوت أو المهادنة، أو الهدوء أو التأجيل ومن ثم فحاجته إلى التعبير أشد وألزم هذا أولًا.

ثانيًا: الخطابة ظاهرة اجتماعية من ظواهر المجتمع البشري؛ ذلك أن الإنسان مدني بطبعه لا يعيش وحده، ولا بد من جماعة ينتسب إليها ويتفيؤ ظلالها، ويستثمر طاقاته بالتفاعل معها، ومن سنن الله في هذا الاجتماع البشري الاختلاف، يقول الله تعالى : {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ } [هود: ١١٨، ١١٩] وقد يكون هذا الاختلاف أولًا حول فكرة أو رأي.

ثانيًا: على مال أو متاع دنيوي.

ثالثًا: من أجل منصب ومن مضاعفات ذلك محاولة الإنسان إقناع غيره واستمالته، إقناعه عن طريق البرهان، واستمالته بوسيلة الوجدان، وتأخذ الخطابة هنا دورها القيادي حين يأخذ الفرد موقعه في المعارك الدائرة مهاجمًا أو مدافعًا عن طريقها.

يقول الدكتور الحوفي : منذ اجتمع الناس في مكان واحد، واستوطنوه وتكلموا بلسا ن واحد؛ عرفوا الخطابة؛ لأنه من الطبيعي أن يختلفوا في رأي أو عقيدة، ومن الطبيعي أن يتنافسوا على غنيمة، أو متاع أو سلطة فيحاول المتغلب أن يستميل من يخالفونه، وأن يقنعهم فإذا ما أقنعهم واستمالهم فهو خطيب، وقوله خطبة.

وقد ذهب ابن رشد إلى جعل الخطابة قاسمًا مشت ركًا، وجاريًا على كل لسان مهما كان مستواه الثقافي ضئيلًا، كل واحد من الناس يوجد مستعملًا لنحو من أنحاء البلاغة، ومنتهيًا منها إلى مقدارٍ، وذلك حق فالتاجر ينادي لسلعته بشيء من البيان بلغتهن يستعمل فيه كل وسائل الإغراء، وكل ذلك رغبة في أمر، يجتهد في استعمال عبارات خاصة؛ يجتذب بها من يريد حمله على ما يبغي ويريد. ولو تسامحنا لسمينا ذلك النحو من الكلام خطابة، هذا بالنسبة لأهمية الخطابة في كونها ظاهرة اجتماعية من ظواهر المجتمع البشري.

ثالثًا: من دلائل أهمية الخطابة : أن الخطابة وحدتها الكلمة بسحرها وفاعليتها، فالك لمة تواكب السيف وتوازره، في غزوة أحد ومع تفوق المشركين على المسلمين عُدةً وعددًا إلا أن قريشًا لم تكتف بهذا التفوق، بل أضافت إليه الكلمة الموحية، وذلك حين أنشدت النساء بين يدي الحرب الفاصلة قائلين:

إن تقبلوا نعانق ونفرش النمارق

أو تدبروا نفارق فراق غير وامق

ولذا قال نابليون: إن نسبة القوة المادية إلى القوة المعنوية كنسبة واحد إلى ثلاثة.

ونحن نقول أولًا: إنه تأثر بتفوق القوة المعنوية إزاء القوى المادية في غزوة بدر؛ إذ كان عدد المسلمين في هذه الغزوة ثلث عدد الكفار تقريبًا، فكان هذا الحكم.

ونقول ثانيًا: إن هذه الروح المعنوية ذاتها وليدة الكلمة المعبرة المؤثرة، والتي لا بد منها عند النزال، ولقد كان لكلمة نابليون أثرها السحري في قلوب جنوده عند غزو مصر؛ إذ قال: لهم تقدموا أيها الجنود، واعلموا أن أربعين قرنًا من الزمان تنظر إليكم من فوق قمم هذه الأهرام، وعلى مر ال تاريخ لم تفقد الكلمة فاعليتها إن الكلمات - كما قيل- لا تروي التاريخ فحسب، بل تصنعه أيضًا.

رابعًا: من دلائل أهمية الخطابة : أنها سلاح من أسلحة الدعوة، الخطابة فوق ذلك كله سلاح من أسلحة الدعوة يحق الله به الحق ويبطل الباطل، وعندما يكثر المبطلون في الأرض، ويظهر شرهم في البر والبحر، فإن الخطيب واحدٌ من الذين يتصدون لهذا الشر كسرًا لشوكته مع غيره من رفاق السلاح على طريق الحق، يقول - صلى الله عليه وسلم- في بيان موقع الخطيب المجاهد بلسانه مع إخوة له: «ما من نبيٍ بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصح اب يأخذون بسنته، ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوفٌ يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمَنْ جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومَنْ جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

ولو تأملنا موقفه -صلى الله عليه وسلم- في قضية المرأة المخزومية التي سرقت، وجاء أسامة بن زيد ليتشفع لها لتبين لنا دور الخطبة الرئيسي في التربية، لقد أنكر - صلى الله عليه وسلم- على أسامة شفاعته قائلًا : «أتشفع في حدٍّ من حدود الله؟ » وكان يكفي هذا الاستفهام المشبع بالمرارة واللوم، ويكفي تغي ر وجهه الشريف - صلى الله عليه وسلم- غضبًا لما حدث، لكنه يسكت -صلى الله عليه وسلم- مدة، ثم يجمع القوم ليقف فيهم خطيبًا قائلًا: «أيها الناس إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاط مة بنت محمد سرقت لقطعت يده» فانظر كيف بقي للخطبة دورها في التحذير، والتنفير، وكيف تهز النفوس فرارًا بها من وضع إلى وضع أمثل.

ومن ثَمَ يبدو أن للخطابة أهمية كبيرة، وغاية ذات شأن خطير، وهي إرشاد الناس إلى الحقائق، وحملهم على ما ينفعهم في الدنيا والآخرة، والخطابة معدودة من وسائل السيادة والزعامة، وكانوا يعدونها شرطًا للإمارة، فهي تُكْمل الإنسان وترفعه إلى ذرى المجد والشرف؛ حيث إن الخطيب يُرشد السامع إلى ما يحتاج إليه من أمور دينه ودنياه، ويقيم له مراسيم لتقويم عيشه والاستعداد إلى ميعاده، وحسبها شرفًا أنها وظيفة قادة الأمم من الأنبياء والمرسلين -صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين- ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك، وكبار الساسة، وفوائدها عظيمة، فهي التي تُعرّف صاحبها كيف يمتلك القلوب، ويستميل النفوس، ويحرك العواطف، ويهيج الخواطر نحو ما يريد، وهي التي ترفع الحق، وتخفض الباطل، وتقيم العدل، وترد المظالم، وهي التي تهدي الضال إلى سواء السبيل، وتفض النزاع، وتقطع الخصومات بين المتخاصمين.

ومن هنا تظهر أهمية الخطبة ومكانتها في الإسلام، فهي تدور في فلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله - عز وجل- بالحكمة والموعظة الحسنة، والجدال بالتي هي أحسن، كما أنها تبغي السعادة للمدعوين في الدنيا والآخرة بهدايتهم إلى طريق الله المستقيم، كما أنها تتعلق بأشرف أجزاء الإنسان : روحه، ونَفْسه، وعقله، وضميره، فغاية الخطابة: صلاح المعاش والمعاد، والفوز بسعادة الدارين، وفَضلها عظيم، وشرفها جسيم؛ إذ هي تتعلق بطب الأرواح وعلاج النفوس لتصل إلى السعادة، وذلك لأن الإنسان مُركبٌ من جسم وروح، وكلاهما عُرضة للأمراض والعلل، فهو محتاج إلى طبيبين، ومتشوف إلى علاجين؛ علاج لجسمه وعلاج لروحه، وأفضل الطِّبَيْن ما أصلح أشرف الجزأين من ه ذا الإنسان.

كما أن الخطابة هي الدعامة التي قامت عليها الانقلابات العظيمة والثورات الكبيرة، فقد جاء الإسلام ليدعو إلى ترك كثير من القديم، وبخاصة عبادة الأصنام والأوثان، ويجمع الناس على عبادة إله واحدٍ، ويدلهم على مكان العادات الإسلامية التي يجب أن تحل محل عاداتهم الجاهلية، فكان لا بد أن تفك الألسنة من عقالها، وتندفع هذه الألسنة تنطق بعبارات ملتهبة، وتوقظ القلوب الحائرة، ومن هنا كان ظهور الإسلام، ودعوة الرسول - صلى الله عليه وسلم- إلى هذا الدين الحق كان انقلابًا سياسيًا ودينيًا واجتماعيًا وفكريًا، ليس في العرب وحدهم، بل في كل العالم، وهنا تظهر أهمية الخطابة وثمرتها الطيبة.

المراجع والمصادر

١- الفيومي، المصباح المنير، ٢٠٠٠/١ المطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٢١م.

٢- الأصفهاني، الراغب، المفردات، تحقيق: محمد سيد كيلاني، القاهرة ١٩٦٩.

٣- الجوهري، إسماعيل بن حماد، الصحاح: تاج اللغة وصحاح العربية، ١٩٠٢/٥، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، القاهرة ١٩٨٢م.

٤- ابن الأثير ، النهاية في غريب الحديث والأثر، تحقيق طاهر أحمد الزاوي ومحمود الطناحي، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة ١٣٦٣ هـ.

٥- الكفوي، أبو البقاء ، الكليات: معجم المصطلحات والفروق اللغوية، مؤسسة الرسالة - بيروت ١٩٩٣م.

٦- التهانوي، محمد بن علي ، كشف اصطلاحات الفنون، تحقيق : لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٦٣.

٧- الشرنوبي، أحمد محمد، الحكمة في ميدان الدعوة إلى الله تعالى، بحث منشور في حولية كلية أصول الدين القاهرة، جامعة الأزهر ٢٠٠٦م.

٨- القرضاوي، يوسف، ثقافة الداعية مكتبة وهبة، الطبعة الثامنة ١٤٠٦ هـ - ١٩٨٦م.

٩- البيانوني، محمد أبو الفتح ، المدخل إلى علم الدعوة : مؤسسة الرسالة، بيروت، طبعة الثالثة، ١٤٢٢هـ- ٢٠٠١م.

١٠- موسوعة نضرة النعيم، إعداد مجموعة من المختصين، بإشراف : صالح بن عبد الله حميد، وعبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن ملوح ، طبعة دار الوسيلة، السعودية، ٢٠٠٤م.

١١- أحمد بن فارس، مقاييس اللغة، تحقيق : عبد السلام هارون، القاهرة ١٩٦٩م.

١٢- الإمام الجويني، الكافية في الجدل، تحقيق د. فوقية حسين محمود، طبعة عيسى البابي الحلبي، القاهرة ١٣٩٩ هـ، ١٩٧٩م.

١٣- حسين عبد الرءوف ، فقه الدعوة الإسلامية ، القاهرة، ط أولى، ١٤٠٨ هـ، ١٩٨٧.

١٤- حسين خطاب ، ضوابط العمل الدعوي في مجالات : الموعظة، المجادلة، الحكم على الآخرين ، ص ٦٩، ٧٢، ٧٩، ٨٥ مكتبة الأزهر الحديثة، ١٤٢١هـ، ٢٠٠٠م.

١٥- اللحيان، عبد الله بن إبراهيم، دعوة غير المسلمين إلى الإسلام، مطابع الحميضي - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠م.

١٦- زيدان، عبد الكريم، أصول الدعوة، دار عمر بن الخطاب الإسكندرية، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ.

17- الشرنوبي، أحمد محمد، موقف الإسلام من أهل الكتاب، رسالة ماجستير مخطوطة بمكتبة كلية أصول الدين القاهرة.